تحديد علاقة المسلمين مع المشركين (خطبة)



الشيخ أحمد بن حسن المعلِّم

مقالات متعلقة

تاريخ الإضافة: 23/9/2023 ميلادي - 9/3/1445 هجري

الزيارات: 5498

تحديد علاقة المسلمين مع المشركين

- خطبة الحاجة، الوصية بالتقوى.

﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ * كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ * اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ * فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ * أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة: 7 - 16].

- هذه الآيات نزلت في تحديد علاقة المسلمين مع مشركي مكة، ولكنها صالحة لكل مكان وزمان ونوع من أنواع الكافرين.

- يبدؤها الله بالتساؤل: ﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ ﴾ [التوبة: 7]؟ أي: لا يمكن أن يكون الأمر كذلك، والسبب ما ذكره في الآيات التي بدأها؛ وذلك لأنهم قد امتلأت قلوبهم وصدورهم بالحقد والحنق على المسلمين، فلو انتصروا عليهم وتمكَّنوا منهم لم يرقبوا فيهم ﴿ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾ [التوبة: 10]؛ أي: لم يرعَوا فيهم عهدًا ولا ذمة.

وإنما حقيقة الحال هو الخداع والتمويه؛ فهم يُرضونكم بالأفواه، بالكلام المعسول الخالي من الحقيقة، أما قلوبهم، فتأبى الوفاء لكم بأي عهد أو ذمة؛ لأن أكثرهم فاسقون.

إنهم لا يلقون بالدين أو الوحي أو كلام الله أيَّ بال، بل يبيعونه ويشترون به متاع الدنيا.

- ثم يؤكد الحقيقة العظيمة الْمُرَّة؛ وهي أنهم لا يرقبون في مؤمن إلًّا ولا ذمة، ويصفهم هذه المرة بالمعتدين.

• ثم يبين المبدأ الإسلامي العظيم والخُلَق الرباني الكريم، الذي ينزع الحقد من قلوب المؤمنين: ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ﴾ [التوبة: 11]؛ لأن عداوة المسلمين لهم إنما لأجل كفرهم وعدوانهم، فلو كفُّوا عن العدوان، ودخلوا في الإسلام، انتهت تلك العداوة.

• ﴿ وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴾ [التوبة: 12].

ويأتي الاستفهام الإنكاري للمشكِّكين في قتال هؤلاء الخونة المعتدين الكافرين: ﴿ أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: 13].

• ويأتي الأمر الحازم الصارم ﴿ قَاتِلُوهُمْ ﴾ لماذا؟ ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: 14، 15]، لم يأمر بهذه الأوامر، ولم يشرع هذا الجهاد ويبين حقيقة ما يجب تجاه الكافرين إلا عن علم بحالهم، وعن حكمة تحدد ما ينبغي، وتضع كل شيء في موضعه الصحيح.

• ثم يكشف الله تعالى عن حكمة عظيمة من حِكَمِ الابتلاء والمواجهة بين المسلمين والكافرين، هي التفريق بين المؤمنين الصادقين وبين المنافقين والعاملين لمصالحهم، الذين يتخذون من المشركين والكافرين وليجة؛ أي بطانة يتواصلون معهم، ويتآمرون معهم على المسلمين، فهناك صادقون أخلصوا أمرهم لله، وهناك واقفون عند مصالحهم الذاتية الموهومة من أجلها يتقربون إلى الأعداء، ويوالونهم من دون المؤمنين؛ يقول الله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا ﴾ [التوبة: 16] في حال الأمن والسلامة التي لا يبين فيها الصادق من الكاذب، والمؤمن من المنافق: ﴿ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ ﴾ [التوبة: 16]؛ أي لم يظهر ويتكشف للجميع، أما الله فهو عالم بذلك أزلًا وأبدًا: ﴿ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ ﴾ [التوبة: 16] بصدقٍ وإخلاص، ﴿ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ﴾ [التوبة: 16]؛ أي يتميز هؤلاء ممن اتخذوا تلك الوليجة، فيظهرون للجميع، أما الله فكما قال: ﴿ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة: 16].
